الشمال والجنوب

للدكتور أحمد محمد الحوفي

يبدر إلى الذهن أول وهلة أن الناس جميعاً يعرفون الشمال ويعرفون الجنوب ، لأنهما الجهتان الأصليتان اللتان تكملان الجهات الأصلية الأربع ، وهي الشرق والغرب والشمال والجنوب .

وقد يتساءل بعض الناس عن السبب في تخصيص الشمال والجنوب بدراسة ، بل قد يعجب من هذا التخصيص .

فما الداعي إذن لبحثٍ عن الشمال وعن الجنوب ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال أضيف إلى العجب من دراسة الشمال والجنوب عجباً آخر هو أن كلمتَي الشمال والجنوب لم تردا في معاجم اللغة بمعنى الجهتين أو الناحيتين المعروفتين ، بل وردت كل منهما على أنها إسم لنوع من الرياح هي الشمال والجنوب .

فلنستشر علماء اللغة ، ثم علماء الجغرافية ، ثم نعقبُ بالرأي .

أولاً
في معاجم اللغة

المعاجم كلها تذكر أن الشرق هو الجهة التي تشرق منها الشمس ، والغرب هو الجهة التي تغرب فيها الشمس .

لكنها لم تذكر — في مادة شمل وجنب — أن الشمال والجنوب جهتان ، بل ذكرت أنهما ريحان(١) .

— ١ —
الشمال

قال ابن دريد ٣٢١هـ (٩٣٣م) الريح الشمال معروفة ، ويقال لها شَمال وشَمْأَل وشامُل بلا همز(٢) .

وقال الأزهري ٣٧٠هـ (٩٨٠م) :

الشمال : ريح تهب من قِبَل الشام عن يسار القبلة ، والشمأل لغة فيها ، ويقال شأْمل وشَوْمَل وشَمْل وشَيْمَل .

وأشْمَلَ يومنا : إذا هبت فيه الشمال .

وغدير مشمول : شملته ريح الشمال أي ضربته فيبرد ماؤه .

ونقل المادة عن أبي عُبَيْد وأبي عُبَيْدة وأبي زيد والأصمعي والكسائي والليث وأبي حاتم وابن السِّكِّيت وابن حَبيب(٣) .

وقال الزمخشري ٥٣٨هـ (١١٤٣م) غدير مشمول : تضربه الشَّمال ، وليلة مشمولة : باردة ذات شَمال ، ونوى مشمولة : مفرِّقة بين الأحبة ، لأن الشَّمال تفرِّق السحاب(٤) .

وقال ابن منظور ٧١١هـ (١٣١١م) : الشَّمال الريح التي تهب من ناحية القطب ، ونقل عن المحكم لابن سيدة وعن ثعلب وعن ابن الأعرابي ما سبق أن نقله الأزهري ، وقال إنها تكون اسماً وصفة(٥) .

ولم يخالف الفيروز ابادي ٨١٧هـ (١٤١٤م) في شيء من هذا ، وزاد عليه أنها لا تكاد تهب ليلاً(٦) .

ثم جاء الزَّبيدي ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م) فردَّد ما سُبق به(٧) .

— ٢ —
الجنوب

أما الجنوب فقد ذكر ابن دُرَيْد أنها ريح معروفة(٨) .

وقال الأزهري : الجنوب من الرياح حارة ، وهي تهب في كل وقت ، ومَهَبُّها ما بين مهبتي الصبا والدبور .

ونقل عن ابن بُزرج وعن الأصمعي وعن ابن السكيت وعن عُمارة (٩) .

وقال الزمخشري إنها ريح (١٠) .

وذكر ابن منظور أنها ريح ، ونقل عن ثعلب وعن ابن الأعرابي وعن الأصمعي وعن عُمارة وعن التهذيب للأزهري وعن الصحاح للجوهري ما يدل على أنها ريح ، وأنها عند سيبويه اسم وصفة ، وعارض الفارسي في هذا (١١) .

وذكر الفيروز ابادي أن الجنوب ريح تخالف الشَّمال ، مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا (١٢) .

وقال الزبيدي إن الجنوب على وزن صبور ريح تخالف الشَّمال ، تأتي من يمين القبلة (١٣) .

ثم ردد المعجم الكبير ما ذكرته المعاجم السابقة ، ولم يذكر أن الجنوب جهة (١٤) .

كذلك اتفق شراح القصائد الطوال الجاهلية المسماة بالمعلقات على أن الشمال والجنوب ريحان ، في شرحهم لبيت امرىء القيس :

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسْمُها
لما نَسَجَتْهَا من جَنوبٍ وشَمْأَلِ

أي لم يدرس رسمها لما نسجته من الجنوب والشمال ، فهو باق .

وكان الأصمعي يذهب إلى أن الريحين إذا اختلفا على الرسم لم تُعْفياه ، ولو دامت عليه واحدة لعفته ، لأن الريح الواحدة تسفى على الرسم فيدرس ، وإذا اعتورته ريحان فسفت عليه إحداهما فغطته ثم هبت الأخرى كشفت عن الرسم ما سفت الأولى .

ففي نسجت ذكر الريح ، لأنه لما ذكرت المواضع والنسج والرسم دلت على الريح ، فكني عنها لدلالة المعنى عليها (١٥) .

— ٣ —

ولكن في لسان العرب وفي تاج العروس تعبيراً آخر جديراً بالانتباه إليه والحرص عليه ، هو : هذا أمر لأهل المدينة ومن كانت قبلته على ذلك

السمت ممن هو في **جهتَيْ الشَّمال والجنوب**(١٦) .

ففي هذا النص اللغوي الفريد دلالة على أن الشمال جهة ، وعلى أن الجنوب جهة .

وسيتضح من أقوال الجغرافيين جميعاً أن الشمال والجنوب جهتان ، كما أن الشرق والغرب جهتان .

ثانيــاً
في مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين

أما علماء الجغرافية — وهم ذوو الاختصاص — فقد نقلت آراء طائفة منهم ، مرتبة ترتيباً زمنياً ، لتتبين دلالة كل من الكلمتين منذ استعملوها .

١ — قال ابن خرداذبة ٢٨٠ هـ (٨٩٣م) : ...... وهو من القطب **الشَّمالي** عن يساره إلى وسط المشرق ...(١٧) .

وقال : حد القسطنطينية من الجنوب بحر الشام ، ومن **الشَّمال** بحر الخزر ... وحد تراقية من المشرق السور ومن **الجنوب** عمل مقدونية ، ومن **الشَّمال** بحر الخزر .

وعمل مقدونية حدة من المشرق السور ومما يلي **الجنوب** بحر الشام(١٨) .

وقال : رومية لها ثلاثة جوانب ، منها الشرقي **والجنوبي** والغربي في البحر والجانب **الشمالي** يلي البحر(١٩) .

وهذه نصوص قديمة فيها كلمة الشمال والشمالي والجنوب والجنوبي للدلالة على الجهة .

٢ — وقال الهمداني — أبو عبدالله أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه — حوالي ٢٩٠ هـ — (٩٠٣ م)(٢٠) .

عرض الأرض من القطب الجنوبي ... إلى القطب **الشمالي** ...(٢١) .

وقال : والبحر **الجنوبي** ...(٢٢) .

وقال : اليمامة واديان يصحبان من مهب الشمال ويفرقان في مهب الجنوب(٢٣) .

فوصف القطبين بأنهما شمالي وجنوبي .

ووصف البحر بأنه جنوبي .

وعين واديين بأنهما ينبعان من مهب الشمال ، ويصبان في مهب

الجنوب ، ولا معنى للمهب إلا أنه مكان الهبوب أي الجهة .

٣ — وذكر ابن جرير الطبري في تاريخ الاسكندر المقدوني أنه دخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي والشمس جنوبية (٢٤) .

٤ — وقال الهمداني ٣٣٤هـ (٩٤٥م) أبو محمد الحسن بن أحمد ابن يعقوب :

فجنوبيها اليمن ، وشماليها الشام (٢٥) .

وقال : تظهر على أهل الجنوب كواكب لا يراها **أهل الشمال** ، ويظهر على **أهل الشمال** ما لا يراه **أهل الجنوب** (٢٦) .

وقال : فإذا مالت الشمس في **الشمال** ... سقطت الأظلال بها إلى **الجنوب** ، وإذا مالت ... سقطت أظلالها **إلى الشمال** (٢٧) .

٥ — وقال المسعودي ٣٤٦هـ (٩٥٧م) :

وأما أهل الربع — ربع الأرض — **الشمالي** ، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في **الشمال** كالصقالبة والإفرنجة ... ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليهم ...

وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج ... (٢٨) .

قسمت الحكماء الأرض إلى جهة المشرق والمغرب **والشمال والجنوب** ... فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء إلى ناحية **الشمال** .... فيعرض ما بين **الشمال والجنوب** (٢٩) .

وقال : فما كان من الفلك آخذاً من **الجنوب إلى الشمال** يسمى العرض ، وماكان آخذاً من الشرق إلى الغرب يسمى الطول (٣٠) .

٦ — وقال الاصطخري ٣٤٦هـ (٩٥٧م) :

وقسمة الأرض على الجنوب والشمال ... فماكان في حد **الشمال** من هذين القسمين فأهله بيض ، وكلما تباعدوا **في الشمال** ازدادوا بياضاً ... وما كان مما يلي **الجنوب** من هذين القسمين فإن أهله سود ، وكلما تباعدوا في **الجنوب** ازدادوا سواداً (٣١) .

٧ — وقال المقدسي ٣٧٥هـ (٤٠٥م) :

.... **القطب الجنوبي** .... **إلى الشمال** ، .... فالخلق على الربع **الشمالي** من الأرض ، **والربع الجنوبي** خراب(٣٢) .

٨ — وقال أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني ٤٢١هـ (١٠٣٠م) :

أحد السماكين **جنوبي** وهو الأعزل ، والآخر وهو الرامح **شمالي** ... ... متحدرة من الجنوب ...

ونقل عن الفراء قوله : البوارج الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هي السموم التي تأتي من الشمال .... وجهة القطب **الجنوبي** وجهة القطب **الشمالي** ... ... والتي تهب من جهة القطب **الجنوبي** هي الجنوب ، والنعامى وهي تهب من جهة **القطب الشمالي** وتسمى الشمال(٣٣) .

وتكرر هذا في مثل قوله : ولكني أعني **بالشمال والجنوب** اللذين هما عن جانبي خط الاستواء(٣٤) .

فترددت في كتابه كلمة الشمال والشمالي وكلمة الجنوب والجنوبي .

٩ — وقال البيروني ٤٤٠هـ (١٠٤٨م) :

.... عند تناهي قرب الشمس من القطب **الشمالي**(٣٥) .

وقال ... البلاد المصاقبة لمقرهم في مشارق الأرض وشمالها(٣٦) .

١٠ — وقال الإدريسي ٥٦٠هـ (١١٦٤م) :

والخلق بجملته على الربع **الشمالي** من الأرض ، وأيضاً فإن الربع **الجنوبي** غير مسكون(٣٧) .

وقال : إلى **شمال** التيه ... إلى **جنوب** وسطها ... فيمر في جهة **الشمال** ... فيتصل من جهة **الجنوب** بأرض هرقلية(٣٨) .

١١ — وقال ياقوت الحموي ٦٢٦هـ ١٢٢٨م) :

الخلق في **الربع الشمالي** من الأرض ، والربع **الجنوبي** خراب .... العمران في **الجانب الشمالي من الأرض أكثر منه في الجانب الجنوبي** ، ويقال إن في **الشمالي** أربعة آلاف مدينة ، وإن كل نصف من الأرض ربعان ، فالربعان **الشماليان** هما النصف المعمور ... فهذا الربع غربي **شمالي** ... فهذا الربع شرقي **شمالي** ، وكذلك النصف

الجنوبي فهو ربعان : شرقي **جنوبي** ... وربع غربي لم يطأه أحد(٣٩) .

واختلف قوم في هذه الأقاليم السبعة : في **شمال** الأرض **وجنوبها أم في الشمال دون الجنوب** . وذهب الأكثرون إلى أن الأقاليم السبعة في الشمال دون الجنوب ، لكثرة العمارة في **الشمال** وقلتها في **الجنوب** ، ولذلك قسموها في الشمال دون الجنوب(٤٠) .

١٢ — وقال ابن سعيد المغربي (علي بن موسى) ٦٨٥هـ (١٣٨٦م) :

عرض المعمور أقصاه في **الجنوب** إلى أقصاه في **الشمال** ٨٠ درجة ، وما بعد ذلك في **الجنوب** لا يسكن ، لقوة حرارة الشمس ...

وما بعده في **الشمال لا يسكن** ، لقوة البرد والجمد .

ومجموع المعمور مقسوم على تسعة أقسام ، المعمور خلف خط الاستواء **إلى الجنوب** ... إلى أقصى العمارة **في الشمال**(٤١) .

وقال : المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب عرضه ١٦ درجة ، لا يظهر فيه البحر المحيط من المغرب الأقصى ، ولا في الجنوب ..

وقال : كما تدخل إليها خمسة أنهار من **الجانب الشمالي**(٤٢) .

وقال : وتحتها بمصر نيل مقدشو الخارج في شمال الخط ... ومجالات أكراو في شمالها(٤٣) .

وقال : المعمور من الأرض في **شمالي الأقاليم** السبعة(٤٤) .

ولقد ردد ابن سعيد الدلالة على **جهة الشمال** وعلى جهة **الجنوب** بقوله **الشمال والجنوب تارة ، والشمالي والجنوبي تارة** ، كما فعل كثير من سابقيه .

١٣ — واجتزئ من أبي الفداء ٧٣٢هـ (١٣٣٠م) بقوله :

خط الاستواء يفصل الأرض بنصفين ، أحدهما **شمالي** ، والآخر **جنوبي** ... أحد الشماليين هو الربع المسكون ... وأما جنوب المغرب فإنه لم يصل أحد فيه إلى البحر ، وكذلك شمال المشرق(٤٥) .

١٤ — وهكذا ترددت كلمة الشمال والشمالي والجنوب والجنوبي في

نهاية الأرب للنويري ٧٣٢هـ (١٣٣٠م)(٤٦) .

وفي مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري(٤٧) ٧٤٨هـ (١٣٤٦م) .

وفي رحلة ابن بطوطة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م)(٤٨) .

وفي مقدمة ابن خلدون ٨٠٨هـ (١٤٠٦م)(٤٩) .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي(٥٠) ، وقد ذكر أهل مصر يسمون جهة الجنوب القبلية ، لأنها في جهة قبلتهم ، ولهذا يبدأون بها في التحديد(٥١) .

● ● ● ● ● ●

.. النتيجة ..

لعل فيما سبق ما يعزز الصواب في إطلاق كلمة الشمال وكلمة الجنوب على الجهتين المكملتين للجهات الأربع ، ولأنه ليس في اللغة ما يمنع هذا الإطلاق ، على الجهة وعلى الريح التي تهب منها .

وإذا كانت كل من الكلمتين قد سمي بها نوع من الريح فإن هذا لا يمنع من أن الريح سميت بالجهة التي تهب منها ، فالشمال جهة ، والشمال أيضاً الريح التي تهب من تلك الجهة ، وكذلك الجنوب .

١ ـــ وإنه ليزيد هذا تعزيزاً أن ابن منظور والزبيدي ذكرا في مادة شرق أن الشمال والجنوب جهتان .

٢ ـــ وقد نقل المرزوقي الأصفهاني في كتابه (الأزمنة والأمكنة) عن الفراء قوله : البوارح الرياح الصيفية ، وسميت بذلك لأنها هي السموم التي تأتي من الشمال .

فجاءت كلمة الشمال في هذا النص دالة على الجهة(٥٢) .

٣ ـــ جاء في لزوميات أبي العلاء قوله :

فيا دار الخسار ألا خلاصٌ   فأذهب في الجنوب أو الشمال
كذاك الدهر إظلام وصبحٌ   وريح من جنوب أو شمال(٥٣)

٤ — ثم إن علماء الجغرافية أجمعوا على أن كلا من الشمال والجنوب جهة معينة ، وترددت في مؤلفاتهم كلمات الشمال والشمالي والجنوب والجنوبي كما سبق .

وعجيبٌ أنه لم يرد في المعاجم اللغوية إطلاق الشمال والجنوب على الجهتين ، كما جاء إطلاق الشرق والغرب ، مع أن مؤلفي هذه المعاجم منذ ابن دريد مؤلف الجمهرة ٣٢١هـ (٩٣٣م) والأزهري مؤلف التهذيب ٣٧٠هـ (٩٨٠م) إلى الزبيدي مؤلف تاج العروس ١٢٠٥هـ (١٧١٠م) عاصروا الجغرافيين الذين أطلقوا كلمتي الشمال والجنوب على الجهتين(٥٤) ، أو عاشوا بعدهم ، وكان من البديهي أن يطَّلعوا على مؤلفاتهم ، وأن يطلقوا الشمال والجنوب على الناحيتين المعروفتين كما أطلقوا الشرق والغرب ، أو ينقلوا عن علماء الجغرافية هذا الإطلاق ، وربما كانت المشكلة تبدو أهون وقعاً وأقل تعقيداً لو أن اللغويين لم يُطبقوا جميعاً على أن الشمال والجنوب ريحان ، على حين أن علماء الجغرافية أجمعوا على أن الشمال والجنوب ناحيتان أو جهتان .

ولكن هذا التعقيد سرعان ما يزول إذا ما دللنا بكلمة الشمال على الجهة المعروفة ، وعلى الريح التي تهب منها ، فهي الريح الشمال ، أو هي الشمال ، وإذا ما أطلقنا كلمة الجنوب على الناحية وعلى الريح التي تهب منها ، فهي الريح الجنوب ، أو هي الجنوب(٥٥) ، لأنها اسم وصفة كما سبق وإن عارض في هذا الفارسي.

ولهذا يصح تفسير بيت أمرىء القيس :

فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسْمُها   لما نَسَجَتْها من جَنُوب وشَمْأَلِ

بأن رسم الطلل باق لأنه معرض لريحين متقابلتين تهبان عليه هما الريح الجنوب والريح الشمال ، أو هما الجنوب والشمال ، لأن إحداهما تعرى الرسم والأخرى تكسوه .

هوامش ●●●●●●●●●●

(١) ما عدا المعجم الوسيط فقد ذكر في مادة شمل أن الشمال الجهة التي تقابل الجنوب ، والريح التي تهب من تلك الجهة ، والجنوب الجهة المقابلة للشمال ، والريح التي تهب منها .

(٢) الجمهرة لابن دريد ٧١/٣ .

(٣) التهذيب للأزهري ٣٧١/١١ .

(٤) أساس البلاغة للزمخشري مادة شمل .

(٥) لسان العرب لابن منظور مادة شمل .

(٦) القاموس المحيط للفيروز ابادي مادة شمل .

(٧) تاج العروس للزبيدي مادة شمل .

(٨) الجمهرة ٢١٥/١ .

(٩) التهذيب ١١٩/١١ .

(١٠) أساس البلاغة مادة جنب .

(١١) لسان العرب مادة جنب .

(١٢) القاموس المحيط مادة جنب .

(١٣) تاج العروس مادة جنب .

(١٤) أصول المعجم الكبير المخطوطة مادة جنب .

(١٥) شرح القصائد السبع الطوال . ابن الأنباري ٣٢٨هـ (٩٣٩م)
وشرح القصائد السبع للزوزني ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) .
وشرح القصائد العشر للتبريزي ٥٠٢هـ (١١٠٨م) .

(١٦) لسان العرب وتاج العروس مادة شرق .

(١٧) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٥ .

(١٨) السابق ١٠٥ .

(١٩) السابق ١١٣ .

(٢٠) الهمذاني بالذال المعجمة لم تعرف سنة وفاته ، ولكن المعروف أنه انتهى من تأليف كتابه (البلدان) سنة ٢٨٩هـ عقب وفاة الخليفة المقتصد . وهو كتاب ضخم في خمسة أجزاء في حوالي ألفي صفحة ، بين أن ينافيه مختصره الذي عمله على الشيرازي سنة ٤٠٣هـ (١٠٢٢م) راجع بروكلمان ٢٣٨/٤ والأدب الجغرافي العربي تأليف : أغناطيوس كراتشكوفسكي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ١٦٢ ومعجم الأدباء ١٩٩/٤ ، والأعلام للزركلي ، والفهرست لابن النديم ٢١٩ وذكر معجم المؤلفين أنه توفي سنة ٣٦٥هـ .

(٢١) البلدان للهمذاني ٥ (بالذال المنقوطة) .

(٢٢) السابق ٧ .

(٢٣) السابق ٥٨ .

(٢٤) تاريخ الطبري ٥٧٨/١ .

(٢٥) صفة جزيرة العرب للهمداني (الهمداني بالدال المهملة .

(٢٦) السابق ٣ .

(٢٧) السابق ١١ .

(٢٨) التنبيه والإشراف للمسعودي ٢٢ .

(٢٩) مروج الذهب للمسعودي ١/٨٦ .

(٣٠) السابق ١/٨٩ .

(٣١) المسالك والممالك للاصطخري ١٦ .

(٣٢) أحسن التقاسيم للمقدسي ٥٩ .

(٣٣) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/٢١٦ .

(٣٤) السابق ٢/٨٥ .

(٣٥) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ٨ .

(٣٦) السابق ٣٦ .

(٣٧) نزهة المشتاق للإدريسي ٨ .

(٣٨) السابق ١١ .

(٣٩) معجم البلدان لياقوت ١/١٩ .

(٤٠) السابق ١/٢٥ .

(٤١) بسط الأرض في الطول والعرض لابن سعيد ١١ .

(٤٢) السابق ١٢ .

(٤٣) السابق ١٣ .

(٤٤) السابق ١٣٣ .

(٤٥) تقويم البلدان لأبي الفداء ٥ .

(٤٦) نهاية الأرب ١/٢٣٣ ، ٢٣٧ .

(٤٧) مسالك الأبصار ١/٢٤ ، ٢٥ ، ٢٩ .

(٤٨) رحلة ابن بطوطة في مواضع متفرقة .

(٤٩) مقدمة ابن خلدون ٤٢٥ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٨٦ .

(٥٠) صبح الأعشى ٣/٢٢٤ .

(٥١) يقصد تحديد الأرض الزراعية وغيرها .

(٥٢) الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/٢١٦ .

(٥٣) اللزوميات ٢/٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٥٤) مثل ابن خرداذبة ٢٨٠هـ والهمداني ٣٣٤هـ والمسعودي ٣٤٦هـ والاصطخري ٣٤٦هـ والهمذاني ٣٦٥هـ والمقدسي ٣٧٥هـ والمرزوقي الأصفهاني ٤٢١هـ والبيروني ٤٤٠هـ .

(٥٥) الشمال والجنوب اسم وصفة كما سبق .